سؤال الحضارة وأثر التربية عليه إيجابا وسلبا

أ. د/ طيبي مسعود

أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة – بو زريعة

Résumé

L'influence de l'éduction sur la question de civilisation; Positivement ou négativement.

Nous essayons dans cette analyse d'un échantillon de discours qui entre enjeu comme un élément essentiel dans la crise de la nation arabo-islamique, qui est l'éducation comme un élément très efficace et très touchant sur les phénomènes du sous – développement et progrès des sociétés et des nations.

الكلمات المفتاحية: السؤال – الحضارة – التربية.

إن أهم سؤال يطرحه الفكر العربي المعاصر اليوم، هو السؤال الذي يتعلق بتخلف الأمة عن الركب الحضاري، وسوء حالها المتفاقم باستمرار، وعجزها عن حل مشاكلها التي تتخبط فيها، وهي مشاكل تخص كل جوانب الحياة الفردية والاجتماعية والمؤسساتية، و يدرك الانسان العربي في نفس الوقت، الهوة الساحقة التي تفصل بينها وبين الأمم الغربية وحتى الشرقية

منها كاليابان والصين وغيرهما، وهو السؤال الذي يطرحه أيضا كل مفكر عربي وكل مسلم أصيل تربطه الصلة بمشاكل الأمة وتخلفها، محاولا تحديد الأسباب واقتراح الوسائل والحلول التي بموجبها نتمكن من دفع عجلة التاريخ إلى الأمام بدل تراجعها نحو الخلف، وهو ما أدى ببعض المفكرين المعاصرين ممن نضج وعيهم واستيقظ شعورهم بحال تخلف الأمة وضرورة تقدمها، منهم الدكتور زكي نجيب محمود 1993/1905، إلى الكلام عن هذا السؤال الذي مافتئ يطرح نفسه عليه بإلحاح شديد، طوال الأعوام الخمسة[1] الأخيرة بصفة خاصة، هو سؤال طرح نفسه على المفكر العربي منذ أوائل القرن الماضي"[2].

ولعل المفكر الكبير زكي نجيب محمود، يشير إلى الكتاب التنويري الذي أثار ضجة في فكرنا المعاصر، ونال شهرة لا مثيل لها من قبل، انطلاقا من عنوانه البراق، وهو الكتاب الذي ألفه "شكيب أرسلان 1869/ 1946"[3] في أوائل القرن العشرين، عنوانه؛ "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم"[4].

وهو في الحقيقة السؤال الذي طرحه "محمد بسيوني"[5] وبعث به إلى مدير مجلة المنار "رشيد رضا 1935/1865"[6] بتاريخ 11 ربيع الآخر سنة 1384 هـ من (جاوة، ميلاتو) وطلب ليجيب عليه في نفس المجلة،

أمير البيان(شكيب أرسلان 1869/ 1946)، فكان له ذلك، مع تعديل بسيط في السؤال الذي أصبح عنوانا للكتاب المذكور.

أما سؤال الدكتور زكي نجيب محمود الذي أشرنا إليه، وهو سؤال فرض عليه نفسه منذ أمد ليس بقريب، كما يقول: "فهو الذي يسأل عن طريق للفكر العربي المعاصر يضمن له أن يكون عربيا حقا ومعاصرا حقا"[7]. ويعلق زكي نجيب محمود عن سؤاله الملح، بأنه لا يزال لم يظفر بعد بجواب يثير طريق العمل.. إذا مازال الناس أمامه في الحيرة نفسها التي كانوا [عليها منذ أن] طرح نفسه عليهم لأول مرة في بداية القرن الماضي"[8]، وعوض أن يفسح السؤال أمامهم الباب ليتنفس الصعدا أدى إلى فرقتهم واختلافهم وعدم اتفاقهم.

وإذا اختلف السؤال في مظهره، بحيث أنه يبدو مرة، أنه يطرح أزمة الواقع العربي، ومرة أزمة الفكر العربي المعاصر، فباطنه ليس كذلك، بل هو عبارة عن عملة واحدة ذات وجهين، ولتداخل الأزمتين، أزمة الفكر وأزمة الواقع، ولارتباط الواحدة منهما بالأخرى ، بحيث" إذا ما تعثر الواقع بدأ الفكر في أزمة"[9] والعكس صحيح، وهو ما يفسره حسن حنفي، بأزمة الوعي العربي المعاصر، وعي عربي حائر متسائل يكاد يقرب من الإحباط ويصل إلى حافة اليأس"[10].

ويُفَسَّر هذا الاختلاف وعدم التلاؤم والتعايش بظهور مختلف التيارات والاتجاهات على المستويين؛ الفكري والواقعي، يحاول كل منها تشخيص الأزمة من وجهة نظره الخاصة، فمن هذه التيارات أو الاتجاهات من يرى أنها أزمة قيم دينية وأخلاقية، ومنهم من يرى أنها ازمة سياسية، أو أزمة تربية وتعليم، إلى غير ذلك، وحقيقة الأمر، هي أنها أزمة واحدة ذات أوجه متعددة ومتداخلة فيما بينها إلى درجة أنها أصبح ليس من السهل حلها نتيجة شدة تعقيدها.

وتولد عن الشعور بهذه الأزمة المعقدة، جملة من الثنائيات الفكرية المتناقضة فيما بينها، كالاتجاه الديني الذي يقابله الاتجاه العلماني، والاتجاه الاشتراكي الذي يقابله الاتجاه الرأسمالي الليبرالي، الاتجاه التقليدي ويقابله الاتجاه التغريبي الحديث، الاتجاه الديمقراطي وتقابله الاتجاهات الشمولية، وقد انعكست وجهة النظر الفكرية المتناقضة هذه، على واقعنا المزري وهو ما زاد في درجة تخلفنا الشامل، وفتح المجال على مسرا عيه، في غياب الرأي المجمع عليه، أمام الارتجالية والنزوات الفردية والإقليمية لأصحاب القرار وانقيادهم لرغباتهم أو الاستجابة لضغوطات أجنبية دون الرجوع إلى إرادة الأمة الممزقة في كيانها المختلفة في رأيها.

و نحاول في هذه المداخلة تحليل عينة واحدة من العينات التي تلعب دورها كعنصر أساسي في أزمتنا الشاملة، وهو عنصر التربية والتعليم، كعنصر فعال ومؤثر جدا على ظاهرتي التخلف والتقدم في المجتمعات والأمم.

ورغم أن هذا العنصر الذي نريد معالجته هنا، لا يعد من الأولويات التي ينبغي لها أن تنال حظها من الاهتمام الأوفر في نظر الحكام وعامة الناس، إذا ما قورن بعناصر أخرى كالسياسة والاقتصاد وغيرهما، إلا أنه عنصر هام، يستحق الاهتمام به أكثر من غيره نتيجة الدور الذي يلعبه في حركة المجتمع وتأهيله ثقافيا وحضاريا، أو العكس إذا ما أهمل ولم يجد العناية به، ألا وهو عنصر التربية والتعليم.

إذن كيف يمكن أن يكون عنصر التربية والتعليم فعالا وديناميكيا في تحديد

نوع المجتمع الذي نريد أو الذي لا نريد وهو العكس؟

أريد وأنا بصدد معالجة الموضوع الإشارة إلى ما قاله روسو(1712/ 1778) في حق كتاب الجمهورية لأفلاطون(347/428)، إذ أنه ينصحنا، إذا ما أردنا أخذ فكره عن التعليم أو تربية النشء، بأن تقرأ "جمهورية أفلاطون" فهي ليست أبدا

كتابا في السياسة فقط، كما يعتقد أولئك الذين لا يحكمون على الكتب إلا من عناوينها، بل هي أعظم كتاب في التربية على الإطلاق لم يسبق له مثيل"[11]. ويفهم من كلام روسو، كمختص في فلسفة التربية الطبيعية، بأنه ينصحنا بقراءة كتاب جمهورية أفلاطون الذي هو ليس كتابا في الفلسفة السياسية فقط، وإنما هو أيضا أعظم كتاب في التربية رغم عنوانه السياسي.

ولنتساءل، لماذا كان الأمر هكذا؟ بحيث ضمن أفلاطون كتابه في الفلسفة السياسية كما يبدو من العنوان نظرية عميقة في التربية؟

والجواب هو، أن أفلاطون أدرك بأنه لا مجال للكلام عن تأسيس النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتطور المجتمع وازدهاره، دون التأسيس له بالتربية، لأن بناء النظم الاجتماعية على مستوى الفكر أو الواقع لا يرتجل، فلابد من التمهيد له بالتربية.

ولكي تحافظ المجتمعات على بقائها وتنمو وتزدهر فلابد لها من التجديد الذاتي المتواصل، ولا يحدث هذا التجديد كما يرى جون ديوي 1859/ 1952، إلا عن طريق النمو التربوي للأعضاء غير الناضجين في المجتمع.. ويحولهم إلى أمناء على موارده ومثله العليا[12].

ويؤكد جون ديوي، على أن المجتمع لا يمكن "أن يكون صادقا مع نفسه بأي صورة من الصور إلا إذا كان صادقا في تيسيره[للنمو] التام لجميع الأفراد الذين يؤلفون ذلك المجتمع"13. وأن" كل ما أنجزه المجتمع لنفسه قد [كان] برعاية المدرسة"14.

وإذا اتضحت أهمية التربية في كيان المجتمعات، واتضح دورها الأساسي في نموها وازدهارها أو العكس؟ فهل التربية والتعليم في الوطن العربي جديران بتطور المجتمع والوصول بالركب الحضاري.

والجواب هو لا، انطلاقا من سؤال الحضارة الذي طرح في بداية القرن التاسع عشر والذي لا يزال إلى اليوم يثير الحيرة، ولا يزال المجتمع العربي ساكنا وواقفا، من حيث انطلق.

فلماذا لم تلعب التربية دورها المنتظر منها في الوطن العربي مثلما ما هي عليه في الغرب مثلا؟

أليست لنا وزارات في التربية والتعليم بأنواعه الابتدائي والثانوي والعالي؟ أليست لنا مناهج تربوية وبرامج على المدى القصير والبعيد، ألسنا نخصص أموالا باهظة في بناء المدارس والمعاهد والجامعات، وتكوين المعلمين والأساتذة على مختلف المستويات.

لماذا لم تؤثر هذه الجيوش الهائلة من خريجي المدارس والجامعات على تطور مجتمعاتنا وازدهارها.

أين نحن من الاكتشافات العلمية، والاختراعات التكنولوجية، والابتكارات النظرية والفنية التي تنعكس على المجتمعات وعلى الإنسانية بالرفاهية والازدهار والخير العام.

هل تأثرنا بالقيم الأخلاقية والدينية التي تنسب إلينا؟ وهل انعكست على نظمنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها بالإيجاب؟

للإجابة عن هذه التساؤلات، اخترت جملة من النماذج الفكرية المعاصرة التي تتهم منظومة التربية والتعليم والثقافة بصفة عامة بالقصور وتحملها مسؤولية تخلفنا وعدم مواكبة السير الحضاري في هذا العصر.

أولها: نموذج زكي نجيب محمود 1905/ 1939، الذي يعلل قصور وعجز تعليمنا بأنه لا يزال تقليديا على المبدأ الذي كان عليه القدماء من أسلافنا، يمكن اختصاره فيما يلي:

1. لا يزال المبدأ في التعليم هو إعادة الموروث تحليلا وشرحا ومناقشة؛ وكان "العالم هو من ازداد إلماما بالتراث وقدرة على فهمه وشرحه وتحليله وإعرابه[15].

2- لا يزال تعليمنا تعليما نظريا نعتمد فيه على ما ورد في الكتب، دون بحث الظواهر الكونية، طبيعية وإنسانية واجتماعية.

3- لا زلنا نعتمد في تعليمنا على الإلقاء والحفظ والذاكرة دون تنمية قدراتنا الأخرى، كالذكاء والخيال والتفكير والإرادة وغيرها من القدرات الإنسانية.

ويذكر زكي نجيب محمود، أنه رغم إنشاء الجامعات والكليات مثل، كليات الطب والهندسة والزراعة وغيرها لدى العرب المحدثين، لكننا "مازلنا حتى في هذه الكليات العلمية، نجرى على المبدأ القديم نفسه"[16] وهو الحفظ، يحفظ التلميذ كتابا في الكهرباء كما لو كان يحفظ ألفية ابن مالك، لأن المدار في كلتا الحالتين هو الحفظ"[17].

ويرى أنه بعد كل هذا يسأل السائلون، "لماذا لا نسهم في دنيا العلوم بإضافات جديدة، إلا القليل الذي يمكن تجاهله"[18].

والجواب عنده كما يقول: واضح" وهو أن المبدأ القديم في العلم والتعليم لم يغيره مبدأ جديد"[19].

ثانيها: نموذج محمد اقبال 1877/ 1938: افتتح محمد اقبال كلامه في الفصل الخامس من كتابه "تجديد التفكير الديني في الإسلام" بقول أحد الصوفيين الكبار في الهند، هو "عبد القدوس الجنجوهي" جاء

فيه: صعد محمد النبي العربي إلى السماء العليا ثم رجع إلى الأرض، قسما بربي لو أني بلغت هذا المقام لما عدت أبدا"[20]. ويعلق محمد اقبال على هذا القول وصاحبه قائلا: "لعله من العسير ان نجد في الأدب الصوفي كله ما يفصح في عبارة واحدة منه عن مثل هذا الإدراك العميق للفرق السيكولوجي بين الوعي النبوي والوعي الصوفي "[21].

ثم يشرع في تحليل العبارة ومناقشتها مقارنا وعي الصوفي النظري الذي يهدف به صاحبه إلى المعرفة في ذاتها أو المعرفة من أجل المعرفة، والوعي النبوي الذي يهدف به صاحبه إلى المعرفة العملية، التي تغير العالم بموجبها، وتغير مجرى التاريخ كله.

فيرى أن العود من مقام الشهود بالنسبة للصوفي"رجعة لا تغني الشيء الكثير بالنسبة للبشر بصفة عامة، أما رجعة النبي فهي رجعة مبدعة، إذ يعود يشق طريقه في موكب الزمان ابتغاء التحكم في ضبط قوى التاريخ وتوجيهها على نحو ينشئ به عالما من المثل العليا جديدا"[22].

مقام الشهود عن الصوفي غاية تقصد لذاتها، لكن عند النبي يقظة لما في أعماقه من قوى سيكولوجية تهز الكون هزا وقد قدر لها أن تغير نظام العالم الانساني تغييرا تاما"[23].

جاء هذا الكلام في المقارنة بين الوعي الصوفي والوعي النبوي، عند محمد اقبال، في إطار نقده للفلسفة التأملية والمعرفة النظرية التي لا تفيد شيئا بالنسبة للإنسان، والمعرفة العملية التي تزدهر بها الحياة وتؤسس بها الحضارة.

ثالثها: نموذج مالك بن نبي 1905/ 1973: يتطرق مالك بن نبي في معظم كتاباته وخاصة كتاب "مشكلة الثقافة" إلى أسباب تخلفنا وتقدم الآخر، وكيف يمكن تجاوز هذه المعضلة الحضارية، ويحمل مسؤولية ذلك، أي التخلف وعدم الالتحاق بالركب الحضاري، إلى نوع الثقافة التي انتشرت عندنا بعد الاستقلال ومنذ اصطدامنا بالغرب، وقد ساهمت المدرسة إلى حد كبير، وساهم تعليمنا على مختلف المستويات إلى تكريس هذا التوجه الثقافي التربوي.

لاشك أننا منذ البداية، أي منذ بداية عصر النهضة أو اليقظة عند المسلمين، أدركنا مدى تخلفنا ومدى تقدم غيرنا، وأدركنا الفاصل الذي يفصل بيننا، وهو ليس فاصلا جغرافيا، ولكن من طبيعة أخرى مختلفة، رد الإنسان المسلم هذا الفاصل الذي يفصل بيننا إلى نطاق عالم الأشياء، وفسر ظاهره التخلف عندنا وظاهرة التقدم عندهم، بما يمتلكون من أشياء ووسائل من مدافع وطائرات ومصارف وغيرها، وبفقدانها عندنا، وتصور تقدمنا باقتناء هذه الأشياء لا غير[24].

ماذا نتج عن هذا التصور؟

1/ أدى هذا الاعتقاد بالإنسان المسلم إلى الشعور بالنقص أمام الحضارة الغربية نفسيا، كما أدى به إلى التشاؤم وعدم الثقة في النفس.

2/ اندفع دون وعي سليم منه إلى تكديس الاشياء واقتناء ما هو جاهز من الغرب دون المساهمة في اختراعه.

3/ أبعده هذا التصور الخاطئ عن محاولة التفكير الجاد الذي يؤدي بصاحبه إلى البحث والاكتشاف العلمي، والإبداع الفني والنظري، والاختراع التكنولوجي.

وينصح مالك بن نبي، لكي نتجاوز مركب النقص عند الانسان المسلم، بأن يَرُدَّ أسباب تخلفه إلى مستوى الأفكار لا إلى مستوى الأشياء.

وأن تطور العلم يعتمد دائما على المقاييس الفكرية ويذكر مثالا، وقع له خلال موسم الحج، بحيث أنه رأي يوم عرفة شرطيا وهو يسوق العربة بالعصا كما لو كانت جملا، ويفسر هذا الظاهرة بمدى امتلاك الرجل للأشياء العصرية وافتقاره في نفس الوقت للأفكار، إذ لا يزال ذهنه مرتبطا بحضارة الجمل والعصا رغم الوسائل المتوفرة.

وينتهي مالك بن نبي إلى جملة من المبررات.

1/ إن تنظيم المجتمع، وحياته وحركته، بل وفوضاه وخموده، وركوده، كل هذه الأمور ذات علاقة وظيفية بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع[25].

2/ إذا تغير نظام الأفكار بطريقة أو أخرى، فإن جميع الخصائص الاجتماعية الأخرى ستعدل في الاتجاه نفسه.

3/ إن الفضل في تطور مجتمع معين يعود إلى جملة الأفكار الهامة.

4/ إن ظهور النهضة في مجتمع ما، معناه أن هذا المجتمع في هذه المرحلة يتمتع بنظام رائع من الأفكار.

5/ إن المجتمع الذي يتمتع بمثل هذه الأفكار الرائعة هو مجتمع يجد لكل مشكلة من مشاكله الحيوية حلا مناسبا.

6/ لقد دخل العالم مرحلة لا يمكن أن تحل فيها أغلبية مشكلاته إلا على أساس نظام الأفكار[26].

ويخلص مالك بن نبي إلى هذه النتيجة: وهي أنه يتحتم على البلاد العربية أو الإسلامية أن تولي أكبر

قدر من اهتمامها لمشكلة الأفكار وخاصة تلك البلاد التي ليس لها كثيرا من أدوات القوة المادية[27].

كما انه يحذر من الأفكار الميتة والأفكار التي قد تكون وسيلة للتهديم والخراب، فتؤثر تأثيرا سلبيا على حياة المجتمع وحياة الأمة بأسرها، ويدعو إلى انتاج الأفكار الحية الديناميكية التي تزرع الروح في مجتمعاتنا فتنهض وتزدهر، وتعاد الثقة بموجبها للإنسان المسلم الذي يؤسس الحضارة.

والخلاصة العامة التي تجتمع عليها الآراء الواردة، هو أن نمط التربية والتعليم في الوطن العربي الذي لا يزال نظريا وتقليديا جدا، يعتمد على مجرد التلقي من الكتب والاعتماد على الذاكرة والحفظ واجترار ما يكتشفه غيرنا، والاهتمام بالكم دون الكيف، هو واحد من العوامل التي لم تسمح لنا بالتقدم الحضاري والمساهمة في دنيا الاكتشافات العلمية والاختراعات التكنولوجية، والإبداعات الفنية والأدبية وغيرها.

التوثيق والهوامش:

. كان ذلك خلال السنوات الأخيرة من القرن 20 ، قبيل وفاته بقليل.1

. زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، ط7، بيروت . لبنان 1402هـ / 1982م، ص10.2

. شكيب أرسلان، (25 ديسمبر 1869 – 9 ديسمبر 1946)، كاتب وأديب ومفكر عربي لبناني اشتهر بلقب أمير البيان بسبب كونه أديباً وشاعراً بالإضافة إلى كونه سياسياً.3

. شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت . لبنان، دون تاريخ.4

. محمد بسيوني، هو (...).5

6. محمد رشيدرضا ولد 27 جمادى الأولى 1282 هـ/23 سبتمبر 1865 في قرية "القلمون (لبنان)"، وتوفي بمصر في 23 جمادى الأولى 1354 هـ/22 أغسطس 1935م، ويعتبر محمد رشيد رضا مفكراً إسلامياً من رواد الإصلاح الإسلامي الذين ظهروا مطلع القرن الرابع عشر الهجري. وبالإضافة إلى ذلك، كان صحفيا وكاتبا وأديبا لغويا. هو أحد تلاميذ الشيخ محمد عبده. أسس مجلة المنار على نمط مجلة "العروة الوثقى" التي أسسها الإمام محمد عبده وجمال الدين الافغاني، ويعتبر حسن البنا أكثر من تأثر بالشيخ رشيد رضا.

. زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، مرجع سابق، ص:7.10

. نفسه، ص: 8.10

. حسن حنفي، الدين والثقافة والسياسة في الوطن العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 2012/2011 ص: 9.23

. حسن حنفي، الدين والثقافة والسياسة في الوطن العربي، نفس المرجع، ص10.23

11 –Jean jacques, Rousseau, Emile ou de l’éducation, édition Garnier frères, paris 1964, p10.

. جون ديوي، الديمقراطية والتربية، ترجمة، نظير لوقا، مكتبة الانجلو مصرية، 1978، ص:12.14

. جون ديوي، المدرسة والمجتمع، ترجمة أحمد حسن الرحيم وآخرين، ط.2 دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، 1978، ص13.31

. نفسه، ص: 14.31

15. زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، مرجع سابق، ص203/ 204.

– نفسه، ص16.204

– " ص17.204

. " " 18"

– " " 19"

. محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الاسلام، ترجمة عباس محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2010، 20.177

– نفسه، ص21.177

. نفسه، ص22.177

– نفسه، ص23.177

– مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، ط.4 بيروت– لبنان 1460هـ / 1984م، ص15. 24

– مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، ط.4 بيروت– لبنان 1460هـ / 1984م، ص 13. 25

– راجع المقدمة الاولى، لكتاب مشكلة الثقافة، مالك بن نبي، المصدر السابق، ص15. 26

27– نفسه، ص15.

المصادر والمراجع المعتمدة في المداخلة:

1– زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، ط7، بيروت . لبنان 1402هـ / 1982م.

2– شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت . لبنان، دون تاريخ.

3– حسن حنفي، الدين والثقافة والسياسة في الوطن العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 2012/2011.

4– جون ديوي، الديمقراطية والتربية، ترجمة، نظير لوقا، مكتبة الانجلو مصرية، 1978.

5– جون ديوي، المدرسة والمجتمع، ترجمة أحمد حسن الرحيم وآخرين، ط.2 دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان 1978.

6– محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الاسلام، ترجمة عباس محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2010.

7– مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، ط.4 بيروت– لبنان 1460هـ/ 1984م.

8 – Jean jacques, Rousseau, Emile ou de l'éducation, édition Garnier frères, paris 1964.